لماذا ندرس التاريخ ؟

الاستاذ الدكتور نزار عبد اللطيف الحديثي
عضو المجمع العلمي
عميد كلية الآداب – جامعة بغداد

تتعدد الدوافع التي تقف وراء دراستنا للتاريخ ولكن بالتأكيد ينظمها دافع مركزي هو الوعي بالتاريخ . فنحن من خلال دراستنا نحاول أن نفهم كيف صنع الناس التاريخ ولماذا ؟ ولكي تكون دراستنا له مجدية فنحن ندرسه بنظرة مدققة ناقدة تحلل جزئياته وتنظم كلياته لكي نفهمه ونعيه . ولكن لماذا الوعي بالتاريخ ؟

الانسان بطبيعته ميّال الى التذكر فهو الوسيلة الوحيدة التي تصله بالأشياء التي تحققت طالما ان المستقبل ليس فقط لم يتحقق وإنما أيضا قد يكون خارج التخيل ، اضافة الى ان تخيل الانسان لما تحقق يولد لديه احساسا بالرضى ، يضاف لهذا ان الوعي يضعنا أمام خيار اكتشاف العبرة في التاريخ واستكشاف المستقبل وتحديد امكانية الامة وقدرتها على انجاز بناء تأريخي في الانسان والمجتمع يحقق النهضة ، فهو اذن وسيلة تواصل تضمن استمرار عملية التمدن الاجتماعي وتضمن للآمة أداء متوازنا في دورها الحضاري .

لقد أسهب المؤرخون في الحديث عن الغاية من دراسة التأريخ التي تعكس الحاجة الى فوائد التاريخ ويمكن تصنيف ما أوردوه من فوائد في المحاور الآتية ...

أولا – ما يتعلق بالأفراد عموما وبغض النظر عن عناوينهم وينحو منحى التعلم والتأدب لتحسين المكانة الاجتماعية لهم طالما ان التاريخ يزود الإنسان بالحكمة والمهارة في الجدل مما يضمن النجاح [١] .

ثانيا – ما يتعلق بالحكام لمعرفة صيغ تدبير الامور . فقد كان الاجماع لدى المؤرخين على ان علوم الملوك هي النسب والأخبار وملخصات الفقه . والنسب والأخبار بالذات هي ما تسموا اليه النفوس الشريفة لهذا كان التأريخ جزء من برنامج معاوية بن أبي سفيان اليومي[٢].

ثالثا – ما يتعلق بأهل العلم لتفسير بعض آيات القرآن الكريم أو تعزيز الحديث سندا ومتنا [٣] .

رابعا – ومنها ما يتعلق بأهل التأريخ أنفسهم من متابعة لدراسة التأريخ واهتمام بأحداثه [٤] .

---

(١) عبيد بن شرية : التيجان ٠,٣١١ ، المسعودي : مروج الذهب ، ٥ / ٧٧ . ياقوت : الارشاد ، ١ / ٩٢ ، ٩٦ ، ١٢ / ٧٨ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، ٥ / ٧٧ .

(٣) الخطيب البغدادي : الكفاية ، ١١٩ قول سفيان الثوري " لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التأريخ " . ابن حجر : لسان الميزان ، ٣ / ١٢٤ . السخاوي : الاعلان ، ٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٤) انظر السمعاني : الأنساب ، ١٤٣ ، ١٥٤ ، ١٩٥ . ياقوت : الارشاد ، ١ / ٢٤٦ ، ١٣ / ٢٧٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ٤ / ١٤٨ ، ٢٠٥ ، هبة الله البغدادي : المعتبر ، ٢ / ٢٢٣ .

كما أسهبوا في تعداد وسائل الاعتبار وأنواع العبر [١] غير انها جميعا تتمحور على ما في التاريخ من خلاصة المآل حيث تبرز نتائج الأحداث أو الحقب واضحة .

صحيح ان دوافع الانسان في متابعة التأريخ وعيا واعتبارا وتواصلا محكومة بدافع ذاتي معرفي لكنها بالمحصلة العامة (الاجتماعية) هي دافع نهضوي يرتبط بالمستقبل بل انه خطوة أساسية في ولوج المستقبل . فالامة التي تدخل المستقبل دون التسلح بالوعي تتجاذبها دروب المستقبل في

(١) تحدث المؤرخون العرب في مقدمات كتبهم عن العبر التي يحفل بها التأريخ ، غير ان أبرز من ركز على هذا الجانب هو ابن خلدون الذي سمى كتابه (العبر) ، ويبدو لي ان استخدامه هذا المصطلح تعبير عن غزارة ما حوى الكتاب من أخبار العرب والبربر ، ومقدار ما أفصح من العبر في مبتدأ الأحوال ، وما كان يريده ابن خلدون لكتابه من دور في الثقافة والوعي ، أي إضفاء صفة استقبالية على المعرفة التأريخية ، فأنت تقرأ العبر لتحدد شكل التصرف ، بغض النظر عن مستوى التصرف وحدوده . انظر ابن خلدون : العبر ، ١ / ٢٤ ؛ والمقدمة ، ص ٧ . وعن الذين قالوا بالعبرة في التاريخ الجمال ابو الحسن علي بن أبي المنصور الأزدي (ت ٦٦٣ هجرية) في كتاب أخبار الدول الاسلامية ؛ التاج ابو طالب علي بن أنجب الخازن ابن الساعي (٥٩٣ – ٦٧٤ هجرية) البدر حسين بن عبد الرحمن الأهدل (ت ٨٥٥ هجرية) وكتابه تحفة الزمن في تأريخ سادات اليمن ؛ العلم ابو محمد القاسم بن محمد البرزالي (٦٦٥ – ٧٣٩ هجرية) ؛ محمد بن ابرهيم بن ساعد بن الأكفاني (ت ٧٤٩ هجرية) في كتابه ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد ؛ الموفق أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر الخزرجي (ت ٨١٢ هجرية) في مقدمة تاريخ اليمن . المقريزي ، أحمد بن علي (٧٦٦ – ٨٤٥ هجرية) في المواعظ والاعتبار .

ذات الصلة بهوية الوسط ونموه التأريخي [١] ، ومع اننا لا نستطيع التفضيل بين المراحل فهي جميعا ذات أهمية ، غير ان المرحلة الرابعة تبدو أكثر غنى وحيوية في تطور المعرفة التأريخية . فهي التي حولت منطلقات القدماء في دراسة التأريخ أو تفسيره الى نظريات ، واسبغت على طرائق كتابة التأريخ صفة المنهجية ، وحولت التفاعل مع أحداثه وجوانب المعرفة التأريخية من مجرد تعاريف الى فلسفة لها أُسسها وتوجهاتها .

لا شك ان هذا التطور الذي مرت به المعرفة التأريخية ليس ذاتيا مجردا من موضوعه ، إنما على العكس كان تطورا وفق جدلية الذاتي والموضوعي ، فتطور المجتمعات وتطور العلم بشكل عام وظهور تقنيات ووسائل بحث جديدة أسهمت كلها في تطور المعرفة التأريخية .

ان الطور الأخير من أطوار المعرفة التأريخية والنظر في علم دراسة التأريخ يقفان وراء الإقرار بأن الفكر يولد في رحم التأريخ . لهذا نجد حركة التنوير العربي في القرن التاسع عشر تطلب من التأريخ أن يمدها بعناصر الوعي والبناء الفكري للعقيدة . وهو تطور لم يسمح لها بأي شكل من الأشكال الحديث عن التأريخ على انه ماض إنما هو مستقبل وانه يحضر في وعينا بهذا الاعتبار ، وليس بأي اعتبار آخر . فعندما تطور التأريخ من مجرد عنصر من عناصر نشوء الامم الى مصدر إمداد للفكر وللبناء القيمي وللرؤية المستقبلية فهذا يعني بالضرورة انه يحضر في وعينا ، باعتباره حالة حفز وحالة بناء موقف إرادي ، فهو رغم عنصر الثبات السلبي فيه

---

(١) محمد عزة دروزة : مختصر تأريخ العرب والاسلام ، ص ٤ – ٥ ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، ص ٨ ، ١٣ ، ٣٩ ، ٥٥ .

بصفته حدثا استنفذ زمنه الا انه يحضر بطريقة حركية ذات قدرة تأشيرية وتغييرية في آن معا ، تغييرية في الوعي ، في الروح ، في الإرادة ، في التطلع . وتأشيرية الى حيث يجب أن يتجه الوعي والبناء الروحي والفعل الإرادي والتطلعات .

ان امتلاك الامم ناصية المستقبل يتم بامتلاك عناصر الاقتدار المادية أو المعنوية وهي عناصر اما مبتكرة وإما مقتبسة ، والتأريخ يعين في الحفز على الابتكار وفي تحقيق الوعي بالذات الذي هو الأساس في الاقتباس ، وبدونه يصبح الاقتباس عشوائيا [1] .

لقد ارتبط التاريخ بحكم هذا التطور بالاشتراطات المادية والمعنوية للنهضة غير انه في الثانية كان أكثر اتصالا ، وبما ان كلا الاشتراطين يرتبطان بالانسان أداة صنع النهضة فقد اصبح لعملية بناء انسان النهضة مطالب من التاريخ منها تبيان أي نسق من القيم الأخلاقية ، وأي مستوى من البناء النفسي وأي مستوى من الوعي هو الذي يسهم في بناء إرادة الإنسان ، ويطلب منه تبيان هويته التي بها يصبح (هو) طالما ان العصر عصر الجماهير وإننا نرى في التاريخ انه علم دراسة النشاط الإنساني وهو نشاط موصوف في المكان والزمان والهوية والغاية [2] .

---

(١) خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، ص ١١٠ " فان الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة ... فلا وجه لإهماله وإنكاره "

(٢) صدام حسين : حوار في التأريخ والحضارة ، حديث يوم ١٤ / ٩ / ١٩٩٩ .

لقد وضع ميشيل عفلق التأريخ مصدرا من مصادر الفكر العربي الثوري ، فهو اساسي للعقيدة العربية الثورية وليس مجرد عنصر من جملة عناصر تسهم في تكوين الامم ، وكان هذا الانجاز نابعا من رؤية لحاجة المرحلة ، وهي مرحلة تأسيس فكري جديد بمنهج مستقل (١) ، غير ان صدام حسين عدّ التأريخ نفسه عقيدة منطلقا من قراءة حاجة مرحلة تطبيق الفكر العربي الثوري (٢) .

الى أين يقودنا هذا العرض الموجز إجابة على سؤالنا : لماذا ندرس التأريخ ؟ انه يقودنا بالتأكيد الى جملة من المسلمات الفلسفية :

أولا – ان التأريخ لكي يمتلك مشروعية الوقوف بين معارف العصر يحتاج الى الفلسفة ، إذ بها يتجاوز صفة التسجيل التقليدية الى مستوى المعارف دائمة التوالد (٣) .

ثانيا – ان مسألة المنهج في كتابة التأريخ لم تعد اختيارية بل حتمية ، طالما ان الصلة بين تطور مناهج البحث في التأريخ ونمو المعرفة التأريخية صلة جدلية (٤) .

---

(١) ميشيل عفلق : البعث والتراث ، ص ٧٧ .

(٢) صدام حسين : جريدة الثورة ، بغداد ، ٢٦ / ٢ / ١٩٨٤ . حوار في التاريخ والحضارة ، حديث يوم ١٤ / ٩ / ١٩٩٩ .

(٣) صدام حسين : حوار في التاريخ والحضارة ، حديث يوم ١٤ / ٩ / ١٩٩٩ .

(٤) صدام حسين : حول كتابة التأريخ ، ص ٧ .

ثالثا – ان دراسة التأريخ ذات بعدين ، أولا استقبالي يحدث التغيير في الزمن الآتي ، والثاني مكاني في الموضوع نفسه (التأريخ) يطور منه ومن مسائله ومن مفهومه أيضا [١] .

رابعا – ان التأريخ يعمل رغم اننا قد لا نكون قادرين على تحسس آلية عمله ، ولكي نضمن انه يعمل فانه يحتاج باستمرار الى العناية بالطريقة التأريخية في كتابته وتكوين مهاراته ، من أجل دراسته " دراسة موضوعية تمكننا من الوقوف على العبر في أحداثه " [٢] .

نخلص من هذا الى ان دراسة التأريخ تهدف الى الوقوف على العوامل المحركة للنشاط الإنساني ، بما يعزز فهمه فهما حقيقيا ، ويجعلنا قادرين على معرفة غايات الشعوب ودورها في ترسيم حركتها التأريخية . هذا الهدف يفترض تطورا في مناهج البحث ، وفي الخطط العلمية لأقسام تدريس التأريخ ، وفي المهارات والتدريب التقني في الدراسات العليا ، ينقل المؤرخ من مجرد مسجل أو وصّاف لأشياء الى محلل ومستكشف لجوهر الأشياء ، ويتطلب أيضا إعادة صياغة لأهدافنا ومتطلباتنا من التأريخ .

---

(١) صدام حسين : حوار في التاريخ والحضارة ، حديث يوم ١٤ / ٩ / ١٩٩٩ ، حول كتابة التأريخ ، ص ١٧ .

(٢) صدام حسين : حوار في التاريخ والحضارة ، حديث يوم ١٤ / ٩ / ١٩٩٩ .

الخلق والتكوين في المعتقدات السومرية والبابلية

الاستاذ الدكتور فاضل عبد الواحد علي
قسم الآثار في كلية الآداب – جامعة بغداد

من السحر الى الدين

تعبر الرسوم التي تركها إنسان العصر الحجري القديم الأعلى وكذلك الدمى الآدمية التي صنعها عن ايمانه بعقيدة السحر وفاعليته في تمكينه من السيطرة على قوى الطبيعة لتحقيق رغباته وضمان حصوله على صيد وافر من الحيوانات التي يطاردها في السهول المجاورة . لكن الانسان لم يلبث وان أدرك من خلال مراحل تطوره الفكري ومن خلال التجربة ان الممارسات السحرية تلك ليست مضمونة دائما لتحقيق النتائج المطلوبة . ذلك لأن الإنسان وجد نفس أمام قوى خفية كامنة في مظاهر الطبيعة وان عليه التعامل معها باسلوب آخر مختلف ان هو أراد منها تحقيق رغباته . وهذا الاسلوب يقوم على مبدأ استرضاء تلك القوى وعبادتها وخدمتها (وهو ما يعرف بالدين) بدلا من اسلوب التقليد والمحاكاة الذي يفرضه التعامل بموجب مبدأ السحر . وهكذا جسّد الانسان القوى المهيمنة في الكون على هيئة الهة كانت ، قياسا على البشر (مبدأ التشبيه) في جنسين مذكر ومؤنث ، وهكذا أيضا عزا اليها كل مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة بما في ذلك تكاثر الانسان والحيوان والنبات .

خلق الكون وصراع الالهة :

يظهر جليا من دراسة الأساطير لبلدان العلم القديم ان عملية خلق الكون قد اقترنت بصراع عنيف بين الالهة في الدهور الاولى . نحن نقرأ ، على سبيل المثال ، في الاسطورة المصرية أخبار المؤمرة التي دبرها الاله سيث لأخيه الأكبر اوسيرس وكيف قتله ووضع جسده في تابوت ثم رماه في نهر النيل فحمله الى البحر وانتهى به المطاف عند مدينة جبيل الساحلية . وتروي لنا الاسطورة قصة الصراع العنيف الذي نشب بين هورس بن اوسيرس وابن عمه سيث حيث صمم هورس على الثأر لابيه فقتل عمه وجلس

على عرش أبيه . ثم ان ما تذكره الأساطير اليونانية عن قيام كرونوس بقطع " أعضاء " ابيه اورانوس وقيام زووس بالإنقضاض على ابيه كرونوس وخلعه من الحكم يتطابق مع الاسطورة الحيثية الخاصة بالاله كوماربي القائلة بان الاله " الالو " كان أول من تربع على العرش في السماء ، ثم جاء انو وهجم عليه وطرده وجلس محله ثم جاء كوماربي وهجم بدوره على انو وطرده من العرش بعد ان قطع " أعضاءه " . . . وعلى أية حال فان ما جاء في الاسطورتين الحيثية واليونانية من صراع بين الاله على السلطة يشابه قصة الصراع العنيف الذي تتحدث عنه ملحمة الخلق البابلية " ايبوما ايلش " . فبعد أجيال من وجود الالهة وتكاثرها أخذت الاله الفتية تزعج جدها الاول " ابسو " بصخبها وضجيجها مما دفعه الى التفكير في إبادتها لكي ينعم هو بالراحة . ولكن سرعان ما اكتشفت الالهة الفتية المؤامرة التي يدبرها ابسو ضدها فقررت قتله . وعندئذ تعقد زوجته بثيامة العزم على الانتقام له ليبدأ صراع مصيري عنيف بين الالهة القديمة بقيادة ثيامة والالهة الفتية بقيادة الاله مردوخ ، وتنتهي المواجهة بين الجيشين بانتصار مردوخ وقتل ثيامة ثم قيام مردوخ بشطر جسمها الى شطرين خلق منهما السماء والارض .

الاسم أو الكينونة :

من المعتقدات المهمة عند سكان وادي الرافدين واقوام قديمة اخرى ما يمكن تسميته بـ " مبدأ الاسم " الذي بموجبه تكون تسمية الشيء مرادفه لوجوده . فما كان له اسم كان له وجود وما لم يكن له اسم ليس له وجود . وقد عبرت ملحمة الخلق البابلية عن هذا المبدأ بشكل واضح في البيتين الاول والثاني من فاتحتها حيث جعلت اسم السماء والارض مرادفا لوجودهما :

" عندما في العلي لم يكن بعد للسماء اسم

وفي الاسفل لم تكن الارض شيئا مذكورا "

وفي نطاق " مبدأ الاسم " يمكن القول ان اسم الشيء كان في نظر الأقدمين بديلا عن المسمى تماما . فنحن نقرأ في الجزء الأخير من ملحمة الخلق البابلية انه بعد ان انتصر مردوخ على ثيامة وانتقم منها للالهة الفتية ، اجتمعت هذه الالهة لإعلاء شأن قائدها ومنقذها مردوخ وتنازلت له عن أسمائها . ولهذا أصبح مردوخ يمتلك خمسين اسما اضافيا ذكرتها الملحمة الواحد تلو الآخر ، وانه بفضل ذلك اصبح يمتلك قدرات تلك الالهة

جميعا فحق له ان يلقب نفسه " سيد البلدان " (في البابلية bel maztati) . ويتضح التطابق بين الرمز والشيء الذي يدل عليه في معتقدات الانسان القديم في معاملتهم اسم الشخص باعتباره جزءا مهما منه ومساويا له .

يقول الدكتور بوثيرو في معرض حديثه عن الاسم انه من المعروف " لدى جميع الذين تعاملوا مع حضارة لابد الرافدين او مع احدى جاراتها او تابعاتها ، ان الاسم لم يكن فيها ، كما هو في نظرتنا الخاصة ، ظاهرة عارضة أو مجرد عرض خارجي للشيء ، او نبرة صوت ومجرد ربط اعتباطي لصلة معنى بمجموعة أصوات . بل على النقيض من ذلك ، فان هؤلاء الناس كانوا على يقين من ان للاسم مصدرا ليس في ذاك الي يسمى ، بل في الشيء المسمى ، وانه انبثاق من هذا الشيء لا ينفصل عنه ، أي انه مثل ظله او نسخة منه او ترجمة لطبيعته . . . " فهناك على سبيل المثال أعداد من الأواني الفخارية والدمى من المملكة الوسطى في مصر (السلالة ١٢) كتب عليها الفراعنة أسماء القبائل المعادية وأسماء شيوخها (وتابعيهم رجالا ونساء مع نبلائها الذين من المحتمل ان يخرجوا على سلطة الفرعون أو يتآمروا عليه أو يحاربوا ضده أو حتى أولئك الذين يفكرون في التآمر ...) وكان يجري تحطيم تلك الأواني والدمى خلال احتفالات طقوسية اعتقادا منهم بان ذلك سيؤدي الى تحطيم الأعداء الحقيقيين . ولا شك في ان الاعتقاد القائل بقوة الاسم واعتباره جوهر الشيء كان السبب في ان تشيع عند الأقوام القديمة عادة استخدام أسمين اثنين للفرد أحدهما سري والآخر علني ليبقى الشخص في منأى عن تأثير السحر عليه . جدير بالملاحظة في هذا الصدد ان عادة اتخاذ اسم سري لم تكن مقتصرة على الأشخاص من البشر فقط بل تصورها الأقدمون انها كانت موجودة بين الالهة أيضا . فبموجب اسطورة مصرية تعود الى السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ – ١٢٠٠ ق.م) كان للاله رع أسماء كثيرة وكان أحدها سريا وكان مصدر قدرته . لكن الالهة ايسيس عقدت العزم على كشف سره ومعرفة اسمه الحقيقي فخلقت ثعبانا وضعته في طريق الاله رع فعضه الثعبان وسبب له آلاماً شديدة لا تطاق . وعندئذ طلبت ان يعلمها باسمه الحقيقي لتعمل منه سحرا يزيل

آلامه ، ورغم ممانعته أول الأمر لكن الاله رع اضطر في النهاية الى الكشف عن اسمه فزال عنه الألم .

الخلق والتكوين في النصوص السومرية والبابلية :

عن خلق الكون والانسان توجد في المراجع المسمارية السومرية والبابلية آراء عديدة تتطابق أحيانا وتختلف بعض الشيء أحيانا أُخرى . ويمكن القول في ضوء المعلومات الواردة في مقدوة لقصة " جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل " وعلى ضوء أساطير سومرية أُخرى مثل اسطورة (الماشية والحنطة) واسطورة (خلق المعول) ان هناك خمس نقاط أساسية في الفكر الديني السومري بخصوص خلق الكون يمكن ايجازها على النحو الآتي :

في البدء كانت مياه البحر (في السومرية نحو N2 mm 1) والراجح ان السومريين تصوروا ان هذه المياه كانت ازلية طالما لايوجد ما يشير في النصوص المسمارية الى أصلها ومولدها .

من مياه البحر الازلية هذه ولد جبل كوني يمثل السماء والأرض متحدين السماء (في السومرية An اعتبر عنصرا مذكرا) والأرض (Ki عنصرا مؤنثا) .

نتيجة لاتحاد السماء والارض ولدالة الهواء انليل .

ان الاله انليل فصل السماء عن الارض فحمل ابوه " ان " السماء وحمل هو الأرض ، ولا يخفى ان هه النقطة بالذات ، أي عملية فصل الأرض عن السماء تعتبر على قدر كبير من الاهمية في مجال الفكر الديني لانها تتطابق تماما مع ما جاء في الكتب السماوية .

بعد ان تم فصل السماء عن الأرض ثم خلق الكواكب والنجوم في السماء والظواهر الطبيعية الاخرى على الأرض .

أما عند البابليين فيظهر جليا من ملحمة الخلق البابلية (اينوما ايلش / عندما في العُلى) ان المياه الازلية الاولى كانت هي الاخرى ايضا اصل الوجود ، وانه من امتزاج المياه العذبة " ريسو " (مياه العمق ، ومنها Abyss في الانكليزية) مع المياه المالحة ثيامة ولد سلسلة من اجيال الالهة التي لم تمكث ان دخلت في صراع عنيف بعضها مع بعض . وبناءا على ذلك فان ملحمة الخلق البابلية تفترض ان الالهة سبقت في الوجود

خلق الكون (السماء والأرض) لان خلق الكون جاء متأخرا بعض الشيء حيث انه لم يتم الا بعد ان قضى مردوخ على ثيامة وشطر جسمها الى شطرين خلق منهما السماء والارض . جدير بالملاحظة في هذا السياق ان الاساطير المصرية تختلف في تصورها لعملية الخلق واصل الأشياء عن الأفكار البابلية فهي ترجع ذلك كله الى الاله رع الذي أوجد نفسه بنفسه على (تل الخليقة) ومن ثم عمل على ايجاد الالهة الاخرى ليصيروا اتباعه .

تصور البابليون ، على ضوء خريطة رسمت على لوح من الطين ، ان الأرض كانت على شكل قرص دائري يحيط بها البحر ويقع خلف البحر ثماني اقليم او مناطق (regiens في البابلية n2qw) رسمت على شكل شعاعيات تحيط بالبحر من الخارج وموزعة على مسافات متساوية . وكانت احدى تلك المناطق مسكنا لاقامة اوتنا بشخم ، رجل الطوفان الذي انثر (بذرة) الانسان من الفناء . بموجب مصادر مسمارية اخرى فانه يوجد تحت مياه العالم مياه العمق (ريسو) التي سبقت الانسان اليها في اعلاه ، وانه يقع تحت هذه المياه العالم الاسفل (أي عام الأموات) الذي يمكن الدخول اليه من بوابتين تغلقان بمزاليج وتقعان في أقصى الافقين الشرقي والغربي . وخلال هاتين البوابتين تمر الشمس يوميا داخله .

" في البدء كان الكلمة "

والطريقة الثانية للخلق في معتقدات سكان وادي الرافدين كانت بقوة (كلمة) الاله التي تحول فكرته الى فعل الخلق . ان قدرة الكلمة على الخلق وهو ما يعرف باليونانية (لوجوس Logos) والموجد في انجيل يوحنا (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله . هذا كان في البدء عند الله . . .) لها ما يناظرها في ملحمة الخلق البابلية . هنا نقرا في بداية اللوح الرابع تفاصيل الاله مردوخ ليكون قائد الالهة في معركتها المصيرية ضد قوى الشر المحتلة المتمثلة بثيامة وجيوشها ويظهر واضحا من تلك المبايعة ان هناك تأكيدا على ترسيخ كلمة مردوخ وقوة فعلها لاعلان شأن الاله وتمكينه من فعل أي شيء وكل شيء . ولم تكشف الالهة في نهاية المبايعة بأن تتأكدوا عن طريق المشاهدة الفعلية بان أصبح لكلمة مردوخ قوة الخلق والافناء ولذلك جاؤ اليه بكوكب (في البابلية لوماشو Luazshu) وضعوه في وسطهم ، ثم طلبوا من مودوخ ان

يقول كلمته ليختفي الكوكب . فلما انطلق اختفى الكوكب . ثم طلبوا منه ثانيـــة ان يقــول كلمته ليظهر الكوكب فلما نطق عاد الكوكب . وعندما راى الالهة اباؤه فعل كلمته ابتهجوا وهتفوا له عاليا " مردوخ هو الملك ! " على حد تعبر النص البابلي الذي نقرأ فيه الآتي :

" واقاموا له عرشا مهيبا

فتصور المجلس قبالة ابنه الالهة

(الذين بايعوه قائلين :) انت

الأعظم اجلالا بين الالهة

فقدرك ليس له مثيل وامرك امر انو (اله السماء)

يا مردوخ ! انت الاعظم اجلالا بين الالهة العظام

وقدرك ليس له مثيل وامرك امر انو (اله السماء)

فمنذ هذا اليوم ستكون كمتك راسخة لا تتغير

انت القادر على ان تعز والقادر على ان تزل

كلمتك هي الحق وامرك لا ريب فيه

وحدودك لن يتجاوزها احد من الالهة . . .

يا مردوخ ! انت بالحق بطلنا

وها نحن نبايعك على الكون اجمعه

اجلس في المجلس وستكون كلمتك هي العليا

عسى ان لا تخطئ اسلحتك الهدف وعساها تحطم الاعداء

ا سيدنا ! ابق على حياة من يضع فيك ثقته

واهدر " حياة " الاله الذي يساند الشر "

بعد ذلك وضعوا في وسطهم كوكبا

ومن ثم قالوا لمردوخ ابنهم :

" يا سيدنا ! حقا ان امرك هو الاول بين الالهة

فلتأمر سواء بالفناء ام بالخلق

انطلق ليختف الكوكب

وانطلق ثانية ليظهر الكوكب

فنطق وبكلمة اختفى الكوكب

ثم نطق ثانية فعاد الكوكب

وعندما رأى الالهة ابؤه فعل كلمته

ابتهجوا وبايعوه قائلين : " مدوخ هو الملك " . . .

الكلمة وانتشار الحضارة :

وفضلا عن قدرة الكلمة على الخلق والافناء على النحو الذي رأيناه عند مردوخ ، فقد عزا السومريون ايضا انتشار مظاهر الحضارة في أرجاء الارض المختلفة الى حكمة الاله اذ يظهر من الاسطورة السومرية الموسومة " انكي ونظام الكون " ان الاله انكي (ايا) كان المسؤول عن الكون وانتظام حركته وعلى نشر أسباب مظاهر الخصب والإنماء والتكاثر في الطبيعة في الحقول والمزارع بين قطعان الماشية والأغنام والاسماك . . وهو المسؤول ايضا عن غزارة الامطار ووفرة المياه في نهري دجلة والفرات . . ويمجد انكي في الاسطورة موضوعة البحث نفسه ويشيد بقوة كلمته وفعل امره على نشر أسباب الخصب ومظاهر الحضارة ليس في سومر فحسب بل وفي مناطق واسعة من العالم للقديم مثل سكان (عمان) ودعون (البحرين) وميلوخا (حوض نهر السند) . . . هذا وقد انجز انكي ذلك كله وهو يتنقل من مكان الى اخر على ظهر سفينته المسماة " الوعل " .

وفضلا عن ذلك فقد وصف الاله انكي على لسان الالهة انوناكي في هذه الاسطورة ايضا بانه الاله الذي " يوجه " النواميس الالهية (في السومرية Me) . ويعتبر هذا المصطلح على قدر كبر من الاهمية في الفكر الديني عند السومريين والبابليين فهو يعبر عن القوى الالهية (Divine Powers) المسؤولة عن خلق ونشر مقومات الحضارة وفنونها . ويظهر من الاسطورة السومرية الموسومة (انكي وانانا) ان النواميس الالهية تلك فكانت بحوزة انكي في مدينة أريدو ، وهو الاله المسؤول عن نشر مظاهر الحضارة والعمران في الارض كما رأينا ذلك قبل قليل .

ويبدو ان الاعتقاد بقدرة كلمة الاله على الخلق لم يكن مقصورا على السومريين والبابليين اذ يورد الاستاذ طه باقر مثالا على ذلك في اسطورة منفس في مصر القديمة

فيقول : " ومما يجدر ذكره عن هذه الاسطورة المصرية الخاصة بمنفس انـــها لا تـــهمل اساطير الخليقة الاخرى الشائعة وانما تدمجها بروايتها وتعللها تعليلا سيما ويكون فلسفيا . واهم ما في هذه الاسطورة أولا معادلة " فتاح " بالاله " نون " أي بالمياه الاولى التي خرج منها الاله " اتوم " (الاله الشمس) وهو الاله الخالق بحسب الاسطير المصرية الاخرى . وهذا معناه ان الاله فتاح قد سبق في وجوده الاله الشمس وانه هو الذي اوجده ، ثم اوجـد الالهة الاخرى وجميع الاشياء بمجرد انه اراد ذلك وقال " الكلمة " ثم استراح الاله فتـــاح بعد ان خلق كل شيء . . . " .

يمكن القول في ضوء الملاحظات الواردة في اعلاه عن الخلـــق والتكويـــن ان السومريين والبابليين قدموا تصورات كانت على قدر كبير من الاهمية في مجـــال الفكـــر الديني وان بينها أفكارا بالدرس والمقارنة خاصة ما يتعلق منها بالنقاط الخمس الآتية :

اعتقادهم بان الماء أصل الوجود .

ان الكون كان كتلة واحدة . ثم شطرت الى شطرين السماء والارض .

ان هناك اكثر من سماء واحدة في الاقسام العليا من الكون (ثلاث سماوات عند البابليين) .

ان الانسان خلق من طين ممزوج بدم احد الالهة (وفي رواية اخرى انه خلق من دم اله) .

ان لكلمة الاله قدرة على الخلق والافناء .

المصادر :

(١) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج٢ ، ١٩٥٦ .

(٢) فاضل عبد الواحد علي ، سومر اسطورة وملحمة ، ط٢ ، ٢٠٠٠ .

(3) S.N. Kromer , The Sumerians , 1963.

(4) J. Black and A.Green , Gods , Demons and Symbols of Mesopzamia , 1998 .